عصـور - تصنيف ج- المجلد 20/ العدد03 ديسمبر 2021
EISSN 6278-2600 / ISSN 1112- 4237 الإيداع القانوني 2002- Depot légal 464
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/167

معرف الكائن الرقمي للمقال: (DOI)10.54239/2319-020-003-006

رأي فقهاء المغرب في وباء الطاعون خلال القرن 9هـ/15م ، كتاب الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية، أنموذجا.

Meghrebian Scholars view on the plague from the book of Tunisian answers to Granadian questions.

ط.د. مغراوي سميرة*

جامعة أحمد بن بلة 1 وهران/ الجزائر

samirameghraoui@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2021/10/17 تاريخ المراجعة: 2021/10/25 تاريخ القبول:2021/12/03

الملخص:

كتاب **الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية** مصدر فقهي عبارة عن أجوبة لفقهاء مغاربة على تساؤلات فقهاء أندلسين، ويعد مؤلّف هذا الأثر النفيس من أبرز فقهاء وقضاة القطر التونسي خلال النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، فهو أبو عبد الله محمد بن القاسم الأنصاري الرصاع (ت894هـ/1488م)، وقد وردت عليه أسئلة من قبل خاتمة فقهاء غرناطة المجتهدين، محمد بن يوسف العبدري الشهير بالمواق (ت897هـ/1491م)، وهي في مسائل متنوعة بين قضايا طبية تخصّ الوباء والاحتراز منه، وأخرى فقهية تتعلق بحكم الطاعون، كما تعرّضت الأجوبة إلى مسائل أخرى نتناول منها رأي فقهاء بلاد المغرب في مواجهة الطاعون.

تتعرض المداخلة إلى كشف جوانب مهمة عن مرض الطاعون الذي فتك بجميع البلاد الإسلامية عامة والغرب الإسلامي خاصة، فنجد كتاب الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية، وهو من أهمّ المصادر كونه يحتوي على إحدى المسائل المتعلقة بالطاعون، إذ دعا

* الباحثة مغراوي سميرة، جامعة وهران1/ الجزائر

المنارة للاستشارات

ww

المواق الفقيه الرصاع أن يحيط هذه المسألة بالاهتمام، وفعلا كان لهذه النازلة الحظ الأكبر من الاهتمام من طرف الفقيه الرصاع.

الكلمات المفتاحية : بلاد المغرب الإسلامي؛ الأندلس؛ الطاعون؛ الفقه الإسلامي؛ الوباء.

Abstract:

the book of ''Tunisian Answers to Granadian Questions'' The edditor of this precious masterpiece, Abou Abdalah Mohammed Ben Elkassem Elanssari Rassaa (894 AH), is considered as the most famous jurist in the second half of the ninth century AH. He was asked by the Granadian jurist Mohammed Ben youcef Elaabdari alias Mowak (897 AH), about different issues related to midicinal properties that concern the plague, and others about its verdicts. The answers, by turns, exposed other matters that provide us with Meghrebian scholars view in confronting the plague.

The intervention reveals important aspects of the plague which devastated the whole Islamic country and the Islamic Occident in particular. Thus, we find the book of ''Tunisian answers to Granadian questions'' the most important resource that includes matters related to the plague, and that have been given a lot of care By the jurist (Mawak)whose answer defines the it liguistically and idiomatically, and he mentioned the difference between the plague and the pandemic as well as their spiritual and material treatment, and their causes.

Key words : Islamic Meghreb country / Andalus/ plagne/ epidemic/ pandamic/ Islamic jurisprudence

المنارة للاستشارات
ww

مقدمة:

لقد عرف الغرب الإسلامي كغيره من الأقاليم الجغرافية الأخرى أزمات وكوارث عديدة، عرفت المنطقة على إثرها سلسلة من التحولات الكبرى والانعطافات الحاسمة في مسارها التاريخي، فكان وباء الطاعون من أشد البلايا وقعا على هذا المجتمع، خاصة وأنه أفرز واقعا مريرا صعب على إنسان الغرب الإسلامي معايشته في تلك الفترة.

إن الرسالة التي كتبها محمد المواق من غرناطة إلى صاحبه محمد الرصاع بتونس، على صغر حجمها تعد من المصادر الدفينة التي تثير قضايا فقهية عن الطاعون والحبس والصدقة والمرأة، لكنها ذات مضمون هام في التاريخ الاجتماعي، فقد أرخت للأزمة التي عانى منها الغرب الإسلامي من جراء الطاعون، فضلا عن كونها المراسلة الأخيرة بين عالمين من إفريقية والأندلس.

ونظرا لأهمية هذه الوثيقة، فقد حاولنا من خلالها التعرف على رأي فقهاء الغرب الإسلامي في موضوع الطاعون الذي أصاب العالم بأسره في تلك الفترة من الزمن، وعن الأسباب المؤدية لذلك والحلول المقترحة من طرف الرصاع في مثل هذه الظروف الصعبة.

فما هو الطاعون؟ وكيف تعامل العلماء معه؟ وما هو أثره على المجتمع؟ هذا ما سنتعرف عليه من خلال هذا المقال والذي نتمنى أن يكون مفيدا لمثل هذه المواضيع.

1.كتاب الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية:

وهو عبارة عن خمسة وعشرين مسألة أرسل بها محمد المواق الغرناطي إلى الفقيه الرصاع سنة 886هـ/1481م ليجيب عنها، وتكمن أهمية هذا المصدر كونه يحتوي على إحدى المسائل المتعلقة بالطاعون، إذ دعا المواق الفقيه الرصاع أن يحيط هذه المسألة بالاهتمام، وهذا ما يتبين من قوله الذي افتتح به هذه المسائل فيقول المواق:" وأدام النفع بكم لسيادتكم الفضل في الجواب الشافي مما تضمنه هذا المكتوب من المسائل الواردة على مقامكم العلي، خصوصا ما تعلق منها بنازلة الطاعون..." (الرصاع،2007م، ص89) وفعلا كان لهذه النازلة الحظ الأكبر من الاهتمام من طرف الفقيه الرصاع، الذي تضمن جوابه عليها التعريف بالطاعون لغة واصطلاحا، وذكر

المنارة للاستشارات
ww

الفرق بينه وبين الوباء، وذكر العلاج المادي والروحي له، مع ذكر بعض أسباب حدوثه، فضلا عن أنه فصل في مسألة العدوى والفرار من الطاعون، وذلك باعتماد هذا الفقيه على مرجعية دينية مستمدة من الأحاديث النبوية التي ذكرت حول الطاعون، وبعض اجتهادات فقهاء المالكية.

والمتتبع لأجوبة المسائل، يلحظ أن الإمام الرصاع اعتمد فيها منهجا علميا جامعا بين التحري والدقة، والأمانة العلمية، فاستشهاده بأقوال الأئمة، وإرجاعه النصوص إلى مصادرها، والأقوال إلى قائليها، وتدرّجه في الجواب بشكل لا يترك للسائل مجالا للتردد، يدلّ على تكوين رصين لهذا الفقيه، وعلى إلمامه بما يحيط به في الواقع. وقد تم طبع الكتاب لأوّل مرة عن دار المدار الإسلامي ببيروت سنة 2007، بتحقيق الباحث التونسي الدكتور محمد بن موسى حسن، على نسختين خطيتين: تونسية وأخرى مغربية، في (268) صفحة.

2.لمحة عن الفقيهين:

أ .الرصاع محمد بن قاسم بن عبد الله الأنصاري التلمساني ثم التونسي، أبو عبد الله (ت894هـ/1489م): قاض ونحوي وخطيب عارف بالحديث من فقهاء المالكية، ولد بتلمسان سنة 831هـ/1427م ، ونشأ واستقر بتونس، أخذ عن جماعة من أصحاب ابن عرفة (ابن مريم، 1908م، ص283) كالبرزلي والعبدوسي وابن عقاب والمحقق عمر القلشاني وغيرهم (التمبكتي، 2000م، ص560)، ولي قضاء الجماعة بها، ثم اقتصر في أواخر أيامه على إمامة جامع الزيتونة والخطابة فيه، متصدرا للإفتاء وإقراء الفقه وأصول الدين (عادل نويهض، 1980م، ص51)، من مؤلفاته تذكرة المحبين في أسماء سيد المرسلين، وشرح حدود ابن عرفة، وتأليف في الكلام على الآيات الواقعة في شواهد المغني، واختصر شرح البخاري لابن حجر، توفي سنة 894هـ/1489م. (القرافي، 2004م، ص202،201).

ب .المواق محمد بن يوسف بن أبي القاسم العبدري، عالم أندلسي غرناطي: العلامة الصالح القدوة الحجة مفتي الحضرة وخطيبها وآخر الأئمة بها، كان ضابطا لفروع المذهب (القرافي، 2004م، ص222،221)، أخذ عن جماعة من الشيوخ كأبي القاسم بن

المنارة للاستشارات
ww

سراج والأستاذ المنتوري والشيخ محمد بن يوسف الصناع وغيرهم، له تأليف عديدة منها شرح مختصر الخليل الكبير، سماه التاج والإكليل والمختصر، وكتاب سنن المهتدين في مقامات الدين (التمبكتي، 2000م، ص561)، توفي في شعبان سنة 897هـ/1492م.

3. تعريف الرصاع للطاعون:

أ. الطاعون لغة: وزنه فاعول مبالغة من الطعن، وأصله من الطعن بالرمح، وجمعه طواعين، وهذا ما ذكره الجوهري (الجوهري، 1979م، ص2157،الزبيدي، 2006م، ص159). فمسألة الخلط بين الوباء والطاعون لم يكن عند بعض اللغويين فقط، وإنما كان عند بعض الإخباريين أيضا، فالمصادر التاريخية استعملت مصطلح الوباء والطاعون دون أن تفرق بينهما (السعداوي، د س، ص37)، فالوباء في الاصطلاح أشمل وأعم من مرض الطاعون، فكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعون، أي أن الوباء قد يشمل أمراضا عديدة من بينها الطاعون (ابن قيم الجوزية، 1986م، ص38)، الذي يعرف بأنه نوع من الأمراض التي تحدث في الزمن الوبائي (الأنطاكي، 2001م، ص335).

ب . اصطلاحا: يقول الرصاع فحسب قول الأطباء كابن خاتمة أن الطاعون هو مرض عام للناس قتال غالبا عن سبب مشترك. فهو مرض أي ضد الصحة، وعام أي أنه لا يخص شخص أو أشخاص (الرصاع، 2007م، ص106)، وهو مرض بكتيري حاد مشترك بين الإنسان والحيوان أيضا، وهناك من يعرفه بأنه مادة سمية تحدث ورما قاتلا (ابن خاتمة،1988م، ص61)، أو هو حمة خبيثة دائمة عن سوء مزاج قلبي بسبب سوء الهواء عن حالة الطبيعة إلى الحرارة والرطوبة، مهلكة في الغالب يتبعها كرب وعرق غير عام، لا يعقب راحة ولا ترتفع عقبه حرارة (الرصاع، 2007م، ص106).

ومن العلماء من قال بأن الطاعون هو الوباء، وهذه عبارة الخليل وهو مرادف الوباء، غير أن القاضي عياض يقول بأن الطاعون أخص من الوباء، وأن كل طاعون يصدق عليه الوباء والعكس غير صحيح، لأن الطاعون هي القروح الخارجية في الجسم، وتكون قاتلة غالبا، والوباء هي الأمراض العامة الواقعة في الأجساد، والقتال من ذلك غالبا هو الطاعون، ويكون بنفث دم أو جنب أو ذبحة أو بغير ذلك مما يعم الموت به في

المنارة للاستشارات
ww

الأمراض أو إسهال كما هو معلوم، وذكروا في ذلك الذبحة بفتح الدال المعجمة، وهي داء في الحلق من فساد الدم، وقد تكون معه قرحة، وقد لا تكون غير أن ابن حجر بين أن الوباء هي الأمراض التامة، وما غلب الموت به منها بقروح قتالة أو ما شابهها فهو الطاعون (الرصاع، 2007م، ص105).

وأغلبهم استند على الحديث الشريف وأن النبي صلى الله عليه وسلم:" ذكر أن الطاعون لا يدخل المدينة، وذكر في الحديث أن الوباء دخل المدينة لأن عائشة رضي الله عنها قالت: قدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله تعالى"(ابن حجر العسقلاني، 2000م، ج10، ص220). أي أن الوباء في غالبه يكون من فساد الدم لفساد الهواء، بخلاف الطاعون إنما هو من وخز الجان لأن الطاعون إنما منعه الله المدينة لوجود الملائكة الذين وكلهم الله يمنعون الدجال ويمنعون الجان الطاعن لأهل المدينة، ويؤيد ذلك الحديث أن:" الطاعون هو وخز الجان" (ابن حجر العسقلاني، 2000م، ج10، ص223، الرصاع، 2007م، ص107).

4.أصل الوباء:

اعتمادا على جملة من المصادر التاريخية والرحلاتية والطبية والفقهية، وحتى كتب التراجم والأنساب وكتب المناقب والتصوف التي تناولت مرض الطاعون، نستشف أن مصدر الطاعون يعود إلى أسيا الوسطى (السعداوي، د س، ص39) التي كانت مخزنا للأوبئة ومنها انتشر نحو الهند والصين، من جهة ونحو الشرق الأوسط والبحر المتوسط من جهة ثانية (السعداوي، 1995م، ص120،121)، وكان ابن خاتمة أول من أشار إلى ذلك فقد ذكر أن أحد التجار المسيحيين من سمرقند أخبره أن الطاعون قد ظهر بتلك المناطق ومنها انتقل إلى الصين وفارس والعراق والأراضي التركية (ابن خاتمة، 1988م، ص173)، وهو ما أكده ابن الخطيب بأن الوباء ظهر بأرض الخطا، والصين في حدود عام أربعة وثلاثين وسبع مائة (734هـ/1333م)، وهذا ما جاء عند ابن بطوطة من خلال رحلته (ابن الخطيب، 1997م، ص45).

المنارة للاستشارات
ww

ونظرا لأهمية هذا الحدث العالمي فإنه لاقى عناية خاصة لدى كتاب الحقبة الوسيطية، فالمصادر العربية أطلقت عليه العديد من التسميات أهمها: الطاعون الجارف، الطاعون الأعظم، الوباء العام، الوباء الأول، الموتان، في حين أطلق عليه في أوروبا اسم الطاعون الأسود"La Peste Noire" (الخطابي، 1988م، ص149).

كما يبدو أن انتشار مرض الطاعون ببلاد المغرب كان عن طريق السفن القادمة من الشام أو مصر أو إيطاليا، عن طريق حركة التجارة العالمية وذلك عام 748هـ/1347م، كما كان لرحلات الحج دور في الانتشار السريع للطاعون في أغلب جهات العالم (بولقطيب، 2002م، ص51)، وقد اكتسح الوباء مدينة تونس خلال الحملة المرينية التي قادها السلطان المريني أبو الحسن إلى تونس والتي منيت بهزيمة أمام القبائل العربية قرب القيروان سنة 749هـ/1348م، فوجد الطاعون قد عمها وأهلك الكثير من سكانها وأدخل الفوضى والخلل على الحياة الاقتصادية والإدارية بالمدينة وارتفعت الوفيات فقد ذكر ابن خاتمة أنه في بعض الأيام بلغ عدد الموتى بمدينة تونس 1202، وبمدينة تلمسان 700، وبلنيسية 1500. (ابن خاتمة، 1988م، ص360).

تبدأ أعراض الطاعون بظهور كرب وعرق غير عام دون ارتفاع في درجة الحرارة على المريض، ثم يظهر عليه فتور في اليوم الثاني واضطراب كلي مصحوب بتشنج وبرد في الأطراف وعطش مراري "سمج متواتر"، أو يحس المريض بثقل في صدره وضيق في التنفس ويصاحب ذلك نفث دم، أو نخس في أحد الجانبين أو تحت النهدين، ويظهر عليه أيضا عطش شديد وسعال وسواد في اللسان أو تورم في الحلق حتى يصعب عليه بلع أي شيء، مع شعوره أيضا بالاختناق ووجع في الرأس ودوار وغثيان مع انطلاق "فضول سمجة" منه (ابن خاتمة، 1988م، ص164).

وهذه في الغالب أعراض الطاعون الرئوي وهو أشد الطواعين فتكا بالناس على الإطلاق، وهي غير أعراض الطاعون العقدي الذي يمتاز بظهور نتوء تحت الإبط أو في الأرنبتين أو خلف الأذنين، أما الصنف الثالث منه فيعرف بالطاعون الأنتانمي أو القروح السود التي تظهر في مواضع معينة من الجسد خصوصا في الظهر والعنق (ابن خاتمة، 1988م، ص164).

المنارة للاستشارات
ww

5.أسباب مرض الطاعون حسب الفقيه الرصاع:

أ. سبب بيئي: مرده فساد الماء والهواء والطعام المؤدي إلى فساد الدم، فيفسد الدم بذلك فينتج ذلك أمراضا سمية في الجسد، وإذا اشتد حالها تعذر طبها، ويكون ذلك بقروح أو غيرها، فترتفع حرارة الجسم (الرصاع، 2007م، ص108)، وهي مقولة معهودة لدى أطباء ذلك العصر (ابن زهر، 1992م، ص143). ويضيف ابن خلدون أن من بين أسبابه كثرة العمران وما يصاحبه من فساد الهواء (ابن خلدون، 2006م، ص282).

ويكون فساد الهواء بسبب الرطوبة والحرارة الزائدتين وكثرة التعفن (ابن زهر، 1983م، ص450)، أو مخالطة الهواء لأبخرة حارة يابسة متعفنة، كتلك التي تخرج من مطامير الطعام التي يطول اختزانها، أو الهواء المتصاعد من أفضية الآبار التي يموت فيها الحيوان (ابن خاتمة، 1988م، ص166،167)، وحتى الأماكن التي تخالط أجساد الموتى المتعفنة، خصوصا إذا كان الماء راكدا مثلما هو الحال في الحروب، وكذا المواضع التي تحوي أكداس الأزبال والخنادق وعمل الخرازين (ابن زهر، 1992م، ص144،145، 1983م، ص453)، وحتى كثرة العمران التي ينتج عنها العفن والرطوبة (ابن خلدون، 2006م، ص282)، ولعل فساد الهواء يؤثر حتما على الحيوانات فتمرض وتموت، فتتأثر من جثثها المتعفنة النباتات والأشجار والثمار وتتعفن هذه الأخيرة، فيزيد ذلك من فساد الهواء المحيط بها (ابن خاتمة، 1988م، ص169،171).

ب .سبب غيبي: مقترن بوخز الجان (الرصاع، 2007م، ص66)، استنادا للحديث الشريف الذي يرويه أبو موسى الأشعري إذ يقول فيه صلى الله عليه وسلم:" فناء أمتي بالطعن والطاعون، قيل يا رسول الله هذا الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: وخز أعدائكم من الجن وفي كل شهداء" (العيني، 2001م، ص381)، وهو قول الفقهاء مثل ابن حجر وابن عرفة بأن الجن في الغالب لا يستولى في الغلبة على الشخص إلا إذا كان معه ضعف في نفسه، وغلب عليه خلط من الأخلاط ضعف معها قلبه وذهنه، حتى إذا أتى إليه الجن تسلط عليه لوجود القابل وقوة الفاعل (الرصاع، 2007م، ص108).

فالطاعون هو وخز من الجان وقد منعه الله عن المدينة المنورة لوجود ملائكة مكلفين بحمايتها من الدجال والجن الطاعن (ابن حجر العسقلاني، 2000م، ج10، ص222)، وقد ربط العلماء وخز الجان أو طعنه بأمور فلكية متمثلة في ظهور النجم

المنارة للاستشارات
ww

وسقوطه، فإذا سقط وغاب تكثر الأمراض والطواعين، وإذا طلعت ترتفع كل الأمراض والعاهات عن كل قطر (ابن قيم الجوزية، ص39)، وذلك استنادا للحديث النبوي القائل:" إذا ارتفع النجم رفعت العاهة عن كل بلد" (الطبراني، 1985م، ص81، ابن حنبل، د س، ص388،341)، فبطلوع النجم أو ظهوره تزول الأهوية الفاسدة المتعفنة، وفي مدة غيابه يكون الهواء فاسدا، وفي هذه المدة يكون طعن الجن الذي بسببه يحدث الطاعون (مزدور، 2008م، ص122).

6.كيفية معالجة هذا الداء والتصدي له:

إن عجز الطب عن تشخيص الفيروس تشخيصا علميا وعن اكتشاف دواء ناجع يفسر أن الحل حسب الفقيه الرصاع تراوح بين:

أ.الوصفة الطبية: المتمثلة في تناول غذاء مناسب لإصلاح الدم وفي شم الهواء المقوي للقلب (الرصاع، 2007م، ص66).

ب .الوصفة الروحانية: المكونة من الدعاء والأذكار وتعليق المعوذات والتسبيح والحث على التوبة، مفرقا بذلك بين الطب الروحاني والطب الجسماني (الرصاع، 2007م، ص66)، منشغلا بتخريج الحديث النبوي المتعلق بالموضوع، والتثبت من إسناده وصحته، وهو ما أثبته الرصاع، مبحرا في علمي الأصول والحديث، مبديا تفوقا واضحا على نظيره الأندلسي في هذا المجال (الرصاع، 2007م، ص67).

7.مسألة العدوى:

لقد طرح المواق السؤال، بناءا على رأي الأطباء (ابن صفوان وابن خاتمة وابن الخطيب) الذين أثبتوا بما لا يدع مجالا للشك مدى عدوى الطاعون، فإنه أشبه ما يكون بنقلة نوعية في علم الطب، أيقظت النفوس، ودعت الفقهاء إلى التساؤل عن جوهر الحديث الصحيح:"لا عدوى ولا طيرة" (الرصاع، 2007م، ص67)، غير أنهم شددوا في رأيهم على الحديث الذي نص على نفي العدوى، قال المازري رحمه الله: العدوى اعتقاد كون الأمراض تفعل في غيرها بطبعها، وهي لا تفعل بطبعها، وأما إن كانت

المنارة للاستشارات
ww

الأمراض سببا لخلق الله تعالى عندما مرض ما وردت عليه فهذا لم ينفه صلى الله عليه وسلم (الرصاع، 2007م، ص130،131).

ومن الجلي أن ذلك أثار جدلا داخل المدرسة التونسية، غير أن إجابة الرصاع امتازت بالاستطرادات المطولة والاستشهادات التي يغلب عليها الطابع الفقهي، مبتعدا بذلك عن رأي الأطباء، فقد تحدث في الجواب الثالث عن النهي عن إطلاق هذا اللفظ وأن المؤمن الحقيقي لا يطلقه، وإن اعتقد أن التأثير إنما هو من الله، مخالفة للعرف والجاهلية والطبيعة، وفي الجواب الرابع عن العرب في الجاهلية وما كانت تعتقده من تأثير إعداء المريض للصحيح، لأن لا عدوى جملة (ابن حجر العسقلاني، 2000م، ج10، ص298، الرصاع، 2007م، ص133)، مفرقا بين رأيهم ورأي المتشرعين في خصوص مسألة العدوى، معتمدا أساسا على آراء ابن حجر العسقلاني (ابن حجر العسقلاني، 2000م، ج10، ص299، الرصاع، 2007م، ص67).

فالعدوى حسب قوله اسم مصدر، فعلها أعدى ومصدره إعداءا، وفي القياس من قولهم: أعدى فلانا من علة به، ومعناها عند العرب: انتقال المرض من المريض إلى الصحيح لأجل المخالطة على أن له أثرا من الأول إلى الثاني، وهي تتم من خلال الروائح الفاسدة المتعفنة ولاسيما إذا خرجت من أفواه المرضى، فإنها روائح سمية ينشأ عنها العدوى (الرصاع، 2007م، ص129،130).

فمسألة العدوى في الطاعون تكون عن طريق ملامسة المريض، واستعمال آنيته وفراشه وطول مجالسته، لأن الأبخرة التي تتصاعد من جسده تكون متعفنة وتؤذي الناس من حوله (ابن خاتمة، 1988م، ص180، ابن الخطيب، ص43)، وقد أثبتت الدراسات الطبية أن العدوى في الطاعون العقدي والطاعون الأنتاني، تنتقل بواسطة البراغيث التي تحمل البكتيريا إلى بعض القوارض كالجرذان، ومن ثم إلى الإنسان، في حين تنتقل العدوى في الطاعون الرئوي عن طريق الهواء وفضلات الشخص المصاب إلى الشخص السليم وهذا ما ورد في الموسوعة الحرة نقلا عن الباحثة مزدور في موضوعها.(مزدور، 2008م، ص229).

يعد ابن خاتمة من بين الفقهاء الذين سلموا بالعدوى وأقروا بوجودها دون المساس بالعقيدة، ويوضح ذلك في قوله:" الظاهر الذي لا خفاء به ولا غطاء عليه أن

المنارة للاستشارات
ww

هذا الداء يسري شره ويتعدى ضره، شهدت بذلك العادة وأحكمته التجربة، فما من صحيح يلابس مريضا ويطيل ملابسته في هذا الحادث إلا ويتطرق إليه إذايته، ويصيبه مثل مرضه، عادة غالبة أجراها الله تعالى، والفعل في الأول والثاني للحق جل جلاله خالق كل شيء، نفيا للتوليد الذي يذهب إليه أهل الضلال، وإبطالا للعدوي التي كانت تعتقدها العرب في الجاهلية، وإعلانا للحق الذي قام عليه شاهد الوجود" (ابن خاتمة، 1988م، ص179)، وهو نفس موقف ابن الخطيب من بعده قائلا:" بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والأخبار المتواترة... لا ينكر العدوى إلا أحد رجلين: إما منافق الطبع يقول بلسانه ما لا يعتقد بقلبه، وإما جاهل ما حضر وباء قط" (ابن خاتمة، 1988م، ص42،44)، ذاكرا في ذلك أمثلة عن كثير ممن احترزوا من الطاعون فنجوا منه بإذن الله، ويرى أن سبب إنكار العدوى عند بعض الفقهاء راجع إلى عدم فهمهم للنصوص الواردة في السنة النبوية حول العدوى والفرار من الطاعون.

ومن ثم عدت مسألة العدوى مسألة فقهية خلافية يصعب الخوض فيها لاختلاف الآراء، ويتضح من كلام ابن حجر أنه تبنى الرأي القائل بنفي وجود العدوى إطلاقا، فلا سبب موجب للاحتراز من العدوى ما دامت من قدر الله تعالى (ابن حجر العسقلاني، 2000م، ج10، ص298). وبهذا اعتبر الطاعون بالنسبة للمسلمين رحمة أنزلها الله على عباده، وأن الميت به كالميت في ساحة الوغى له ثواب الشهيد لقول الرسول صلى الله عليه وسلم:" الطاعون شهادة لكل مسلم" (البخاري، 1987م، ص1041).

8. مسألة الفرار من الوباء:

وهو موضوع السؤال الخامس، فقد تناوله الرصاع بإطناب، إلا أن موقفه ظل متذبذبا بين الفرار منه مثلما دعا إلى ذلك الأطباء ومن بينهم ابن الخطيب، وبين الاعتقاد أن الفرار مخالف للدين فالبقاء فيه إعلاء للدين وثبوت الشهادة به، كما قد يساهم في تعقيد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وأن تحمل هذا الأمر قد يكون أفضل (الرصاع، 2007م، ص67)، لأن الفرار فيه كسر لقلوب الضعفاء والمرضى والعاجزين عن الخروج، ولا يخرج غالبا إلا الأقوياء، وكسر القلوب منهي عنه في الشريعة، وكذا لو خرج كل الأصحاء لتعذر وجود من يقوم بالتمريض، لأن التمريض واجب على المسلمين،

المنارة للاستشارات
ww

ولأنه قل أن يسلم أحد بعد أن تمكن الهواء الفاسد من خياشيمه ورئته، فلا فائدة لخروجه (الرصاع، 2007م، ص154)، حيث يقول في هذا الصدد:" وسر النهي عن الخروج أوجه كثيرة منها أنه لو صح ذلك وقلنا بالجواز، لأدى ذلك إلى كسر قلوب الضعفاء والمرضى والعاجزين عن الخروج، ولا يخرج غالبا إلا الأقوياء... ومنها لو خرج الناس لتعذر القيام بالمرضى ... ومن ذلك أن الخارج من محله لا يصح له ذلك لأنه قل أن يسلم بعد أن تمكن الهواء الفاسد من خياشيمه ورئتيه" (الرصاع، 2007م، ص68). أما الحل الروحاني فلم يكن أمام الفقهاء حلا سوى الدعاء لرفعه، والاعتقاد أنه شهادة ورحمة. فقد أفتى الرصاع على غرار ابن حجر، بالاجتماع للدعاء لدفعه، ذاكرين في ذلك أدعية كثيرة (الرصاع، 2007م، ص68)، لكن ثمة إشارة مهمة أفادنا بها الوزان تشير إلى مرض الطاعون الذي كان" يذهب بالعدد العديد من الناس لأنه لا يهتم به أحد، ولا يستعمل أي دواء باستثناء التمسح بالتراب الأرميني حول دمل الطاعون" (الوزان، 1983م، ص85) على حد تعبيره، مما يقودنا إلى القول بأن جهود الأطباء كانت ضئيلة في ميدان علم الأوبئة، وظل هذا المجال غامضا نوعا ما خصوصا إذا اقتنع الناس بروحانية أسبابها الأمر الذي يدفعهم إلى المداواة بالطب الشرعي أو الشعبي، وهنا ظهر دور الأولياء في ممارسة بعض الطقوس الاشفائية كالرقية، والتفل، والدعاء (ابن الحاج، 1972م، ص123).

فقد عدى الخروج من أرض الطاعون على ثلاثة، أن يخرج لقصد الفرار وهذا محل النهي، وإما أن يخرج لحاجة له في بلد آخر فله ذلك، وأما إذا قصد الفرار من أرض الطاعون إلى أرض سليمة فقد اختلف الفقهاء في أمره بين من يبيح له الفرار من أجل التداوي وبين من ينهى عن ذلك (الرصاع، 2007م، ص159).

كما طرحت قضية الهجرة كحل للفرار من الطاعون، وهي الانتقال من الأرض الموبوءة إلى أرض سليمة، فرارا من الطاعون، كما طرح السؤال حول كيفية التصرف في أموال أهل البلاد الموبوءة، هل يقتصر على التصرف في الثلث أم في كامل الأملاك، علما بأن بعض المفتين دعوا إلى الحجر على أملاك أهل البلاد الموبوءة، مستعينا في ذلك برأي شيوخه أمثال البرزلي والغبريني وعبد الرحمن الطرابلسي (الرصاع، 2007م، ص159).

المنارة للاستشارات
ww

- خاتمة:

من خلال ما تم تقديمه نستنتج أن:

لجوء الفقهاء الأندلسيين إلى الفقهاء المغاربة للتقصي عن ظواهر عديدة منها الطاعون، والذي شكل حدثا كبيرا اهتم به الجميع نظرا لمخلفاته الكبيرة وسط المجتمع عامة، إذ اعتبر الفقهاء المغاربة مرجعا للفتوى نظرا للمكانة العلمية التي بلغوها في الفقه وعلومه.

كما أن المتتبع لأجوبة المسائل يلحظ أن الإمام الرصاع اعتمد فيها منهجا علميا جامعا بين التحري والدقة، والأمانة العلمية حيث يرجع سبب الطاعون إلى فساد الهواء والمياه والأغذية، وعدة عوامل من بينها انعدام شروط النظافة، وكثرة الحروب وتذبذب المناخ خاصة المناطق الخاضعة للمناخ المتوسطي، كما لا ننسى أن عددا كبيرا من الفقهاء يرجع سبب حدوث الطاعون إلى "وخز الجان"، وذلك انطلاقا من معتقد ديني تجسد في العديد من الأحاديث النبوية وثواب من أصيب به هو الشهادة، ومسألة العدوى التي شكلت محور جدل كبير بينهم، كما خلق الطاعون وسط المجتمع خوفا من العدوى فجعلهم ينيبون إلى الله بالتوبة نظرا لإيمانهم العميق بأن الأوبئة هي عقاب من الله، ولهذا كانت كرامات الأولياء ملاذا لهم لطلب الاستشفاء.

كما عمل الطاعون على انتشار ظاهرة الفرار من الوباء أو ما يعرف بالهجرة، وإن كانت أمرا مكروها بناءا على أحاديث نبوية وردت حول ذلك، فالطاعون لم يكن حدثا اختص بمنطقة دون غيرها فقد كان حدثا عالميا عم عالم العصور الوسطى بأسره، لأنه ذهب بأهل "الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها" على حد تعبير ابن خلدون.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن الحاج التلمساني(1972م): المدخل، ط2، بيروت، ج4، دار الكتاب العربي بيروت.

المنارة للاستشارات
ww

2. ابـن الخطيـب لسـان الـدين السـلماني الغرنـاطي(ت 776هـ/1374م)(1417هـ/1997م): مقنعـة السـائل عـن المـرض الهائـل، ألمانيـا منشـورات معهـد العلـوم العربيـة الإسـلامية، فرنكفورت، مج93.
3. ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي(773هـ/852هـ/): فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج10، دار الكتب العلمية بيروت، ط3 سنة 1421هـ/2000م.
4. ابن حنبل أحمد الشيباني البغدادي(ت241هـ/855م): المسند، الحديث رقم 19546، ج4، مؤسسة قرطبة القاهرة، (د ت).
5. ابـن خاتمـة أحمـد بـن علي الأنصـاري(ت بعـد 770هـ/1369م)(1988م): تحصـيل غـرض القاصد في تفصيل مرض الوافد، نشر ضمن كتاب عبد الكريم الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، ط1 دار الغرب الإسلامي بيروت، ج1.
6. ابـن خلـدون عبـد الـرحمن بـن محمـد الحضـرمي الاشـبيلي(ت808هـ/1406م)(1427هـ/2006م): المقدمة، تحقيق محمد الأسكندراني، ط1، بيروت دار الكتاب العربي.
7. ابن زهر أبو مروان بن أبي العلاء بن عبد الملك(ت525هـ/1130م)(1403هـ/ 1983م): التيسير في المداواة والتدبير، تحقيق ميشيل الخوري، تقديم محي الدين صابر، دمشق منشورات المنضمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار الفكر.
8. ابـن زهـر أبـو مـروان بـن أبي العـلاء بـن عبـد الملـك(ت525هـ/1130م)(1992م): كتـاب الأغذية، تحقيق اكيراتيون غارتيا، مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية .معهد التعاون مع العالم العربي.
9. ابن قيم الجوزية(1406هـ/ 1986م): الطب النبوي، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، ط13، بيروت مؤسسة الرسالة .مكتبة المنار الإسلامية.
10. ابـن مـريم الشـريف المليتـي المـديوني التلمسـاني أبـا عبـد الله محمـد بـن محمد(1326هـ/1908م): البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، اعتنى بمراجعته ابن أبي شنب، طبع بالمطبعة الثعالبية بالجزائر.
11. الأنطاكي داوود عمر(ت 1008هـ/1599م)(1421هـ/2001م): بغية المحتاج في المجرب من العلاج، ط1 بيروت دار الفكر.
12. البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل(ت256هـ/869م)(1407هـ/1987م): الجامع الصحيح المختصر، تحقيق مصطفى ديب البغا، ط3، بيروت اليمامة دار ابن كثير ، ج3، الحديث رقم 2675.

المنارة للاستشارات
ww

13.التمبكتي أحمد بابا (963هـ/1069م)(1979م): نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات دار الكاتب طرابلس، الطبعة الثانية 2000م.
14.الجوهري(ت394ه): الصحاح، تح أحمد عطار، بيروت ، ج6.
15.الخطابي عبد الكريم(1988م): الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، ط1 دار الغرب الإسلامي بيروت، ج2.
16.الرصاع محمد(ت894هـ/1489م) والمواق محمد(ت897هـ/1492م)(2007م): الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية(886هـ/1481م): نص جديد حول الأندلس وإفريقية قبيل سقوط غرناطة، تحقيق ودراسة محمد حسن الجامعة التونسية، دار المدار الإسلامي، ط1، يناير.
17.الزبيدي محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى(2006م): تاج العروس من جواهر القاموس، مطبعة الكويت.
18.الطبراني(1405هـ/1985م): المعجم الصغير المسمى الروض الداني، تحقيق محمد شكور محمود الحاج أمرير، الحديث رقم 104، ط1، المكتب الإسلامي دار عمار بيروت عمان.
19.العيني بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد (ت 855ه/1451م): عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ضبطه وصححه عبد الله محمود محمد عمر، ج21، كتاب الطب باب 30، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط سنة1421ه/2001م.
20.القرافي بدر الدين محمد بن يحي بن عمر(1008هـ)(1425هـ/ 2004م): توشيح الديباج وحلية الابتهاج، تحقيق على عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1.
21.الوزان الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقي(ت بعد 957هـ/1559م)(1983م): وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط 2، دار الغرب الإسلامي بيروت، ج1.
22.أحمد السعداوي: المجاعات والأوبئة في تاريخ الغرب الإسلامي الوسيط: النتائج الديمغرافية، ضمن الديمغرافية التاريخية في تونس والعالم العربي.
23.أحمد السعداوي(1995م): المغرب الإسلامي في مواجهة الطاعون: الطاعون الأعظم والطواعين التي تلته القرنين 8و9ه/14و15م، ط1.
24.حسين بولقطيب(2002م): جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، منشورات الزمن.
25.عادل نويهض(1400هـ/1980م): معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ج1، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر بيروت لبنان.

المنارة للاستشارات
ww

26.مزدور سمية: المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588ـ927هـ/ 1192ـ1520م)(سنة المناقشة 2009/2008م)، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، أشراف محمد الأمين بلغيث، جامعة منتوري قسنطينة.

المنارة للاستشارات
ww